هل أصبحت الأديان سوق حرة في زمن العولمة

تقييم لأطروحة "الجهل المقدّس" لأوليفييه روا

عبدالرحمن المري

المقدمة

يقدم أوليفييه روا في كتابه الجهل المقدس، دراسةً لأنماط التحولات الدينية في عصرٍ يعج بتسارع حركة الأفكار والعواطف وانفصال الديني عن الثقافي، إضافة إلى التصادم بين الروحي والزمني.

لقد برزت في العقود القليلة السابقة، تفاعلات انتهجت نهجا متطرّفا في التعبير عن ذواتها، ويرجع ذلك إلى مواجهة فكرية عنيفة قامت بين فرضيتين، كانت الأولى ترى في العلمنة نتيجة حتمية للحداثة وشرط لها في الآن ذاته، بينما شجعت الأخرى على عودة الدين إما بوصفه احتجاج على حداثة وهمية أو مستلبة، وإما كشكل مغاير للدخول في ركب الحداثة، من منظور مستقل.

من جانبه لم تخل المجتمعات الدينية عن تقلّباتٍ في نظامها المعرفي، يدل على ذلك الحراكات المدنية العلمانية في إيران؛

ولقد شهدت كثير من الدول العلمانية –الأوروبية تحديدًا- ولادة تيارات أصولوية في داخلها، مثلما حدث في فرنسا وبريطانيا وغيرها.

يأتي الكتاب مبنيًّا على الذهول الناجم من انتشار الأديان واتخاذها أنماطا متجددة، كما ويحاول رصد التحولات الطارئة على جغرافيا الدين، بما أنها جغرافيا لم تعد تتقيد بقيود الثقافة الخاصة لأي مجتمع ما.

يطرح الكتاب سؤالاه الرئيسيان: ما الذي يحدث عندما ينفصل الدين عن جذوره الثقافية؟ ولم تبدو الأديان اليوم وكأنها هي التي تضطلع بإعادة ترتيب الهُويّات؟ ثم يمضي في الإجابة عنهما في قرابة 329 صفحة من فصول الكتاب السبعة.[1]

سَتُقَسّمُ القراءة إلى جزءين اثنين؛

سنقوم في الجزء الأول بعرض خلاصة أفكار الكاتب، بينما سيمثل الجزء الثاني تقييمنا لأطروحته.

---

[1] روا، أوليفييه. (2012). الجهل المقدّس: زمن بلا ثقافة. بيروت: دار الساقي، ص20

الجزء الأول

الديني والعلماني: جدل العلاقة

لا يجد الكاتب مندوحة من التأكيد على دور "العلمانيّ" في إنتاج "الدينيّ"؛ فالعلمنة لم تقم بإزالة الدين مطلقًا، إنما فَصْلُها للديني عن البيئة الثقافية، جَعَلَها تقومُ بإظهاره كدينٍ محض، يتسّمُ بالنقاء التام عن أية علائق أخرى تأتي من خارجه.[2]

فالذي نشهده في عالمِنا اليوم، هو إعادةُ إنتاجٍ للدين في فضاءٍ معلمن، منحته التمثّلات -الدينية- استقلالًا ذاتيًا غير مرتبطٍ بشروطٍ ثقافيّةٍ ما، وبالتالي سُمِحَ للديني بالتوسّع والانتشار. وهو يؤكد أن العلمنة والعولمة معًا، أجبرتا الأديان على الانفصال عن سياقاتها الخصوصية، وأن تعيد بناء نفسها في فضاءات لم تعد إقليمية، فهي إذن ليست محكومة بالمجال السياسي الذي كانت تعيش فيه، وثم يعزو فشل الديني-السياسي (حكومة دينية) إلى كونه أراد منافسة العلمنة في ميدانها الخاص وهو الفضاء السياسي (أمة، دولة، مواطن، دستور، نظام قانوني).

لا يفوت الكاتب الإشارة إلى أن تسييس الديني يؤدّي حتما لعلمنته؛ وأن ثمة رابطة وثيقة بين العلمنة والإنعاش الديني، فالأخير كما يرى ليس رد فعلٍ ضد العلمنة بل هو ثمرتها، والعلمنة تصنع الديني. [3]

بيد أن هذه الصناعة لا تؤدي لانبعاث الدين كما كان عليه، وإنما تعيده وقد اكتسى حلة جديدة، يعبر بها عن سعيه للانسجام مع ظرفه الزماني والمكاني والتاريخي، ف"عودة الديني، المعاصرة، ليست عودة في شيء، بل هي نتيجة للعولمة"[4]

إنها عملية مركّبة تنطوي على استحضار كثيف لمعان الدين ومفاهيمه ودلالاته، وإحيائها من جديد وفق مساقات حديثة ولأغراض واسعة وضيّقة ومختلفة.

---

[2] المصدر نفسه ص20

[3] المصدر نفسه، ص21

[4] المصدر نفسه، ص252

والديني إذ رمنا مقاربته، فإنه يتنقّل خارجَ أيّ هيمنة سياسية تكبحه أو على الأقل تقنن مساراته.

و ثمّة ظاهرتان تلعبان دورًا رئيسيًّا في طفرة الديني وسطوته، يكمن أولاهما في زوال الصفة الإقليمية، وترتبط رئيسيًّا بانتقال الأفكار والمواد الثقافية والإعلام والأنماط الاستهلاكية إلى فضاءات عامة غير إقليمية؛ أما الثانية فتتمثل في فقدان الهوية الثقافية.

يترتب عليها تحوّل المسافة بين المؤمن وغير المؤمن إلى حاجز، فلا يعودان يتقاسمان قيمًا ومبادئًا مشتركة.[5]

وينبه الكاتب أن الأديان لا تعرف الانتقال خارج ثقافاتها الأصلية إلا إذا عرفت كيف تفقد هُويّتها الثقافية، ذلك بأن المعلم الديني ينتقل ولكن بعد أن يتجرّد من المعالم الثقافية للبيئة التي نشأ فيها، مع احتمال اتصاله بمعالم ثقافية أخرى، هجينة وعائمة. [6]

تحويل الدين إلى سوق حرة واحتدام الطلب العولمي

ينخرط الكاتب بصورة جوهرية في استقراء المحيط الذي تحتدم فيه التحولات الاجتماعية وذلك في فضاء أضحى معولمًا، ومتجاوزًا للأطر والقيود، وبقدر ما يحاول التصدّي لسؤال: لماذا يحدث التحوّل من دين لآخر بهذه الصور السيّالة، بقدر ما نجده يكرّس نفسه لتفسير آلياتها، والمضي بعيدا نحو سبر أغوارها؛ إنه إذن يضطلع بشكل أكبر في الإجابة عن سؤال كيف تحدث التحوّلات، وما حجم العلاقة بين اعتناق دين جديد، -بصيغة العرض والطلب، حيث هناك سوقٌ هائل للأديان- وبين تطوره ليصبح ضربًا من الجهل المقدّس، أي أن يؤمن به الفرد ويذود عن حماه ويضحّي من أجله، دون الوقوف على مضامينه، وفهمه حق الفهم؛ "والحال أن العولمة خلقت سوقًا عالميًّا للدين. فيدور الكلام إذن على مستهلكين، أي أناس لديهم طلب تتعين تلبيته بصدد الحاجات الروحية، ويجدون لديهم تشكيلة من المنتجات متنوّعة وسهلة المنال، حيثما وُجدت في العالم، أو يكاد. إن السوق لم يعد مقيّدًا".[7]

وهذا سوقٌ لا يفوت الكاتب أن يشير إلى مجازيّته.

---

[5] المصدر نفسه، ص30

[6] المصدر نفسه، ص29

[7] المصدر نفسه، ص248

كما أسلفنا، يرى الكاتب في العلمنة دافعًا جديدًا للدين، تساهم العولمة بدورها في عودته وانتشاره، ويشدد في أن "الأصولوية" هي الشكل الديني الأفضل تكيّفا مع العولمة، لأنه يقوم بإزالة هويته الثقافية الخاصة ويتخذ ذلك أداة لطموحه العالمي، ويمكن القول أن العولمة تحمل مجالا افتراضيًّا، مفرّغًا من الإكراهات الاجتماعية والسياسية، يهيّئ للديني فرصة انتقاله، متحررا منها جميعًا، وهو ينتقل من خلال منتجاته كما يصطلح الكاتب، والتي يتم إستهلاكها من دون حاجة إلى معرفة الثقافة التي أنتجتها، ومن ثم ترتحل بفضل ناقلات عالمية، كالإذاعات والإنترنت وشبكات التلفاز.

ولكن ما العلاقة الدقيقة بين الأصولوية والعولمة؟، يجيب: "الأصولوية هي عامل من عوامل العولمة ونتاج لها في آن"

ويؤكد على فكرته: "ولكون العولمة تقدّم للديني فضاءً جديدًا، فإنها تسهم في تقهقر الهُويّة الثقافية للأديان القائمة"

ويفصّل في أن العولمة والأصولوية، إذ تفصلان الديني عن الثقافة وتجعلانه مستقلًّا، إنما تصنعان منه على وجه الدقة مُنتجًا مُعدًّا للتصدير.[8]

شروط السوق:

1. التداول: لا بد من وجود فضاء مشترك لتداول المنتجات بعيد عن رقابة دولية، يتجلّى هذا الفضاء كسوق عالميّة يتم فيها تداول المنتجات الدينية، وللتأكيد فإن ذلك لم يؤد إلى اختفاء المعتقدات ذات الصبغة المحليّة، كما يحدث في مجال التنافس الاقتصادي، بسبب أن الأديان العِرقية قادرة على الصمود والتماسك، لكونها تجذرّت في المخيال الاجتماعي والسياسي للشعوب، ما يعني تحوّلها لمكوّن ثقافي قائم في المجتمع الذي تسبح في فضاءه. وعلى الرغم من وجود قوانين تحدُّ من انتشار الأديان، أو بعبارة أدق تحد من التخلي عن الأديان الوطنية

---

[8] المصدرنفسه، ص252

لصالح أديانٍ مُعولَمَة؛ إلا أن الأديان وثيقة الصلة بجماعة، أو إقليم أو ثقافة ما، تستطيع بطرق متعددة أن تطرح نفسها بغتة في السوق العالمي وأن تتعمم.[9]

2. الأديان المُعدّة للتصدير: لا يعني التقهقر الثقافي، التخلي عن المعالم الثقافية، بل يمكن استعمالها بشرط أن تكون خارج عن أي تراكم اجتماعي، أي أن الممارسة الثقافية قائمة ولكن بعد استنباتها من جديد، وتكييفها ضمن إطار ممارسة دينية مستحدثة. فللأديان إذن قابلية التصدير، تتيح لها الظهور كدين عالمي مُطابق لأشكال التديّن الجديدة، "منفصلة انفصالا تامًّا، عن أصولها، وعندما تعود إليها ففي هيئة إعادة تصدير، لا إحياء لتقليد محلّي".[10]

3. زوال الصفة الإقليمية عن المحلي: يتطرق الكاتب أيضًا في سياقه، إلى أفولِ أنجْمِ الصفة الإقليمية عن مدارات النطاق المحلّي، بمعنى أن الديني الذي اكتسب شرعيّة محليّة، وكان على اتصالٍ بالتاريخ الاجتماعي، حيث يظهر في طقوس وممارسات، لا تخرج عن محيطه الثقافي، لم يعد كذلك؛ فلقد صار عابرًا يجوب البلدان والأقاليم، ويَخْلِقُ ويُخْلَقُ داخل فضاءات افتراضية.[11]

4. زوال الصفة العرقية عن الديني: لم يقتصر تعولم الدينِ على ذلك وحسب، إنما امتد ليشمل فصل الصفة العرقية عن الدين؛ إنها أشبه بفك اقتران الديني عن علائقه الأولى، والتي ارتبطت بسيرته الأولى، التي رشف من معينها، وتشكّل في ظلالها، ليصبح مُتاحًا للأعراق الأخرى.[12]

5. فقدان الهوية الثقافية: يتمثل الشرط الأخير الذي يضعه الكاتب لاكتمال السوق العالمي للدين، في: اقتلاع الدين من بيئته، وانحلاله من روابطه التي نشأ تحت

---

9 المصدر نفسه، ص253

10 المصدر نفسه، ص264

11 المصدر نفسه، ص273

12 المصدر نفسه، ص275

إطارها؛ ليلفي نفسه صلصالًا يعاد تشكيله من جديد، مع احتفاظه بفكرته الكبرى المحرّكة له.

الجزء الثاني

سنلقي هنا بعض الضوء الكاشف لمكامن القصور، التي إمّا سقطت سهوًا عن ذهن الكاتب وهو يعالج موضوعًا مُركّبًا كموضوع الدين والعولمة؛ أو أُغفلت، أو أُلقِيَ بها في غَيَابَتْ التحيّز، لاسيّما ما وجدناه من تكثيف مُضمَر تجاه قوالب أيدولوجية، سنأتي على ذكرها بإيجاز:

الدين والتدين والعولمة والعلمنة

تقدم ليندا وودهِد في دراستها الأثيرة معيارًا بنيويًّا في مجالات البحث في علم اجتماع الدين: "ليس من الضروري أن نبدأ كل دراسة عن الدين بتقديم تعريف للدين، ولكن من الضروري أن يكون لدينا بعضٌ من الوعي النقدي بمفهوم (أو مفاهيم) الدين الموظفة في الدراسة، وأن نكون قادرين على تبرير قابليته للتطبيق في سياقات استخدام بعينها"[13]. أي نظرة فاحصة لا تخطئ ارتباكا يسود ثنايا أطروحة أوليفييه روا، علّتها غياب الخطوط النظرية اللازمة في تقعيد المفاهيم الرئيسية؛ وبالرغم من وضوح الغاية التي ينبتُّ لها الكتاب، وتجلّي الخصوصية التي يحوم حولها، وهي ظاهرة انتقال الدين من مجال لآخر، إلا أنه ومن غير اعتسافٍ، نجده يضع بعض نتائجه قبل مقدّماته. فإننا نلحظ غبشًا في تعميم الديني والعلماني بإطلاق، ينجم عنه عدم مراعاة الطبيعة الضيقة للموضوع المُعالَج،

فما هو هذا الديني الذي يخفق بجناحيه حول العالم؟ أهو دين بدلالته المعيارية الصلبة أم بمفهومه الإجرائي السيّال؟ وهل هو محض دين أم ضربٌ من التديّن؟ وما كوامن العلاقة بين الدين والعلمانيّة على ضوء التصادم الجذري بينهما؟ وأي سياق تتسق فيه العلاقة بين العولمة والعلمنة؟ وأي صورة

---

[13] Woodhead, Linda. (2011*). Five concepts of religion*. International Review of Sociology. Vol. 21, No. 1: 121-143.

يحدث التنافر بينهما أو الانزياح وحضور الديني؟ هذه جمع أسئلة نضعها في مجهر الملاحظة، قَصُرَ نفس الكتاب في فصوله الممتدة عن توضيحها.

الدين والانفعال الديني

من نافل القول أن هذا كتابُ ليس في العولمة وليس في علم-اجتماع الدين، إنما هو أقرب إلى تحليل العلاقة بينهما، وهذا ملمح مركزي، يبيّن طبيعة الحقل الجديد والغرائبي، الذي تتموضع الدراسة فيه، وتروم مقاربته، بأدوات من داخله، وأخرى من خارجه؛ عند هذه النقطة، يتضح قدرًا من الخصوصية وقدرًا من العمومية، يتزاوجان، ومن ثم يستدعيان ما أسماه أولي ريس وليندا وودهِد "سوسيولوجيا الانفعال الديني" في أطروحتهما المهمّة؛ لقد بات من الضروري في عالمٍ شديد السيولة أن تُدرس ظواهر الدين باستحضار الكم الهائل من الانفعال المتواري خلف حجاب التديّن، وهذا ما لم يوفيه روا حقّه.[14]

الديني والعلماني: سيرورة التداخل

لقد كان هناك تواصل كثيف بين الديني والعلمانيّ، دفع روا للقول أن الديني في عصرنا الحديث هو ثمرة العلماني، وتسييس الديني يؤدي إلى علمنته؛ مع ما تقرر لدينا سلفًا من كون الديني هنا غامضًا أيّما غموض، فالصورة لم تُرسَم بوضوح؛ ولكن تظل هناك بعض المساحة للتحرير والتنوير. التطور التاريخي لظهور العلمانية جاء في البدء من أجل قطيعة ليست مع الدين إنما مع سلطة رجال الدين، والبون شاسع؛ وهي تعكس بشكل أدق خروجًا راديكاليًّا عن مسار الإصلاح الديني اللوثري والكالفني، وذلك بهدف تأسيس دين آخر هو القومية[15]. لم تستطع العلمنة أن تستأصل شأفة الديني من اللا وعي البشري عوضًا عن تغلغله الاجتماعي والتاريخي، هذا بطبيعة الحال يقودنا إلى حقيقة أن الفضاء العام سواء كان المحلي أم المعولم، يعيش تداخلًا لا نهائيًّا بين الديني والمُعلمن، في عملية واسعة من

---

14 ريس، أ.، وودهد، ل. (2018). سُوسيولوجيا الانفعال الديني. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص9-30

15 امسترونغ، كارين. (2016). حقول الدم. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص17-40

التفاعلات، يقابلها كمّا هائلًا من المفاهيم والتمثّلات، كالحرية الفردية، وشعور الانتماء الديني، والنزعة نحو التحرر، والتفكير كجماعة مُتخيّلة وغيرها[16]؛ ومعالجة انتشار الدين وتحولات الأفراد والجماعات تحت سقف العولمة، سيوصِل إلى كشف المنظومات الدينية كبضاعات يتم ترويجها والاستقطاب بها، ما يشي بوجود سلطة لا مركزية تهيمن على الدين من خارجه وتحركه بأنامل السوق وبما يختلج في نفوس مرتاديه من أهواء ورغبات، ولكن الواقع الذي تقود إليه المسألة هو ما يسمّيه باتريك هايني تشفير الهوية الدينية، وذلك في سياق دراسته للعلاقة بين الإسلام والسوق: "التأكيد على الهُويّة الإسلاميّة يميل إلى الاندماج في الفضاء العام العالمي ويتعزز من خلاله، في نفس الوقت الذي تصبح فيه الهُويّة أكثر عرضةُ للاختراق، من قبل رؤى العالم والمُنتجات التي يشتمل عليها"؛ إذن في هذه الحالة: "سيُعاد تعريف إشكالية الهُويّة الإسلامية من خلال مفاهيم العلامة التجارية وليس من خلال المعايير الدينية، وفي الوقت نفسه تطوير التزامات سياسية ناعمة، ينتُجُ عنها علاقة فضفاضة بمسألة الديني بينما سيغدو البعد السياسي خطابيًّا إلى حدّ كبير"[17]

أسطرة العنف

لقد مر الانتقال من الديني إلى العلماني في أوروبا بمخاضات عدة، فالحداثة لم تحدث دفعةً واحدة، إنما جاءت على مراحل، في غير ما فصل، وغير ما وصل، وغير ما قطع؛ يبقى المتنازع عليه هو متى انتظم المكوّن العلماني، ومتى اشتدّ عوده، واستوى على سوقه؛

ومن غير المعقول، أن يأتي الحديث عليها –العلمنة- ولا يستوفي صعود القوميّة، وتكشّف الوضعية كمنهج علمي ومنظر للوجود، وتنامي الفكرة الإنسانوية؛ وفي هذا الكتاب نجد في أطروحة روا إضمارًا واسع الدلالة، إلى قضية العنف الكامنة خلف ستار التحولات الدينية، الثاوية في سوق افتراضية هائلة.

---

16 أسد، طلال. (2017). تشكيلات العلماني: في المسيحية والحداثة والإسلام. بيروت: دار جداول، ص15-30

17 هايني، باتريك. (2015). إسلام السوق. القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ص96-97

لقد افترض وليام كافانو بأن "حجج اقتران الدين والعنف تخدم مصالح محددة لمستهلكيها في الغرب؛ إن هذه الحجج جزء من السردية التنويرية التي خلقت هوّة بين الديني والعلماني، وجعلت من الأوّل دافعًا لا عقلانيًّا وخطيرًا ينبغي إقصاؤه من الحيّز العام لحساب الأشكال العقلانية العلمانية من السلطة؛ في الغرب، أصبح الاشمئزاز من القتل والموت باسم الدين أحد المبادئ، التي نصبح بوساطتها مقتنعين بأن القتل والموت باسم الدولة القوميّة أمر مناسب وجدير بالثناء، كما أن أسطورة العنف الديني تزوّد الأنظمة الاجتماعية العلمانية بهدف سهل، ألا وهو التعصّب الديني ليؤدّي دوره كعدوّ"[18]

الخاتمة:

لقد قام أوليفييه روا في كتابه باستقراء واسع لنماذج شتّى من التحولات الدينية في العالم، ضاربًا أمثلةً حيّة وغزيرة، وذلك في سبيل تحليل أنماطها ودوافعها، بافتراض وجود سوق تغذّيه العولمة، وتسييس للدين يقود لعلمنته، واضعًا شروطًا للسوق، تجذب الأديان بعد قطع جذور ثقافتها، وإزالة صفاتها الإقليمية والعرقية، ثم جعلها قابلةً للتصدير.

ومن الواضح أن تسليع الدين لا يزال يتجلّى منذ فجر الانترنت والشبكات التواصلية الحديثة، بيد أن هذا التسليع كما استعرضنا، لا يأخذ الدين بما هو جوهر أو معيار أو حتى إجراء، إنما يستلّه ويدفع به كانفعال، زمنيّ، محكومٌ بشروطٍ دنيوية محضة، مردّها أسباب كثيرة، أهمها العلاقة المتوترة بين الإنسان ونزعاته.

---

18 كافانو، وليام ت. (2017). أسطورة العنف الديني. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر. ص9

المراجع:

روا، أوليفييه. (2012). الجهل المقدّس: زمن بلا ثقافة. بيروت: دار الساقي،

ريس، أ.، وودهد، ل. (2018). سُوسيولوجيا الانفعال الديني. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

امسترونغ، كارين. (2016). حقول الدم. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

أسد، طلال. (2017). تشكيلات العلماني: في المسيحية والحداثة والإسلام. بيروت: دار جداول.

هايني، باتريك. (2015). إسلام السوق. القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر.

كافانو، وليام ت. (2017). أسطورة العنف الديني. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

Woodhead, Linda. (2011). Five concepts of religion. International Review of Sociology. Vol. 21, No. 1: 121-143